ماذا بعد هذه الحرب المُعلَنة على التاريخ والعقيدة، ولمصلحة من تدور رحى هذه الحرب؟

(٤)

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

-١-

الحرب بالنصوص وفقدان الهدف

ما هو هدف الإيمان المسيحي الأرثوذكسي؟

سؤالٌ كان يشكِّل قلب الإفراز والتمييز في التعليم المسيحي، ولكن للأسف، ربما لم يعد هذا السؤال في بؤرة الوعي المعاصر.

الهدف الأبدي من الإيمان المسيحي هو شركتنا في حياة الثالوث. هذا هو غاية الإيمان المسيحي. كانت الغاية أو الهدف من الشريعة هو أن تكون شريعة موسى وتشريعات العهد القديم -كما قال رسول الرب: "مؤدبنا إلى المسيح"، ولم يقف رسول الرب عند هذه العبارة، بل أكمل القول: "ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب" (غلا ٣: ٢٤ - ٢٥). وذكر الرسول السبب: "لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع" (غلا ٣: ٢٦). هذا الإيمان هو ما يُمارَس في المعمودية: "لأن كلكم الذين اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح"؛ لأن البنوة للثالوث تحدث فعلاً، وتفوق كل ما هو سابقٌ عليها:

- "ليس يهودي ولا أممي (يوناني)"، فقد انتهى دور الفارق العرقي؛ لأن المسيح هو ابن الإنسان لا ابن إبراهيم وداود فقط.

- "ليس عبدٌ ولا حُرٌّ"، وهي الفوارق التي جاء بها المجتمع القديم، حيث كان البشر يُباعون مثلما يُباعون اليوم في أسواق العراق.

- "ليس ذكر ولا أنثى"، فالاختلاف البيولوجي الذي فُرض على المرأة، ليس له وجود في الخِلقة الجديدة.

- "لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع"، ويخاطب القديس بولس دعاة التهود في زمانه: "فإن كنتم للمسيح، فأنتم نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة" (غلا ٣: ٢٧-٢٨).

هذه هي الفقرات التي لا نريد أن ندرسها، ولا حتى نقترب من الواقع الجديد في المسيح يسوع، واقع الحياة الجديدة أو الخلقة الجديدة. ولعل صرخة بولس رسول المسيح تدخل عقول صار الحصن الوحيد الباقي لها في هذه الدنيا، ليس المسيح، بل النص، إذ يقول رسول الرب لنا جميعاً: "**جرِّبوا أنفسكم هل أنتم في الإيمان. امتحنوا أنفسكم. أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح فيكم إن لم تكونوا مرفوضين**" (٢ كو ١٣: ٥). تُرى هل فقدنا الهدف و لم نعد -كما قال بولس- "نحيا معه بقوة الله" (٢كو ١٣: ٥)؟ وكيف انزلق المطران إلى اعتبار المسيح الرب قوة وطاقة، وهو "يحل بالإيمان في قلوبنا" (أفسس ٣: ١٧)؟ لأن هذا الحلول هو حلولٌ لأهم أهداف المحبة الثالوثية: "وأنتم متأصلون ومتأسِّسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو وتعرفون محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى **كل ملء الله**" (أفسس ٣: ١٧-١٩)، ويمكنني أن أضع هنا شرح الآباء على عبارة "ملء الله"، ولكني أكتفي بأنها تعني الشركة الكاملة في حياة الثالوث القدوس. هذه الشركة تبدأ معنا هنا وتكمل في الدهر الآتي. ولكن واضح أن الفقر الروحي والفكري الذي وضع الإنسان تحت الشريعة، هو الذي جعل هؤلاء الفقراء يجدون في النصوص الحصن الذي يدافعون فيه عن فقرهم.

الخلقة الجديدة:

هي خلقة الإنسان الجديد الذي لا يتكون من حفظ الشريعة، بل هو مخلوقٌ

من جديد، "مخلوقٌ بحسب الله في البر وقداسة الحق" (أفسس ٤: ٢٤)، مخلوقٌ في المسيح، في آدم الجديد أو الثاني "الرب من السماء" (١كو ١٥: ٤٧). مخلوقٌ حسب كلمات الرسول التي غابت في صراخ اللعب بالنصوص: "إن كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً"، وهذا الجديد – حسب كلمات رسول الرب نفسه: "ولكن الكل هو من الله" (٢كو ٥: ١٧-١٨)، هو الذي صرنا نحن فيه في يسوع "بر الله" (٢كو ٥: ٢١)، ليس بر الناموس، أو بر الشريعة، بل بر يسوع، بر الله نفسه الذي يُوهَب ويُعطى، لا بما يمارسه الإنسان، بل بما أنجزه رب المجد.

خلفية تاريخية لم تُدرس بعد:

لا يعرف الصارخون في الفضائيات، والمبارزون بالنصوص أن الإسكندرية كانت معقلاً هاماً من معاقل يهود الشتات. وفي الإسكندرية تُرجم العهد القديم إلى اليونانية (الترجمة السبعينية)، وكانت قراءة أسفار العهد القديم في الكنيسة أساسية منذ بداية العصر المسيحي، وشهادة العلامة أوريجينوس تؤكِّد لنا أن العظات، وشرح أسفار العهد القديم، كانت أحد مكونات مدرسة الإسكندرية اللاهوتية العظيمة. في هذا المجتمع كان اختلاط اليهود بالمسيحيين أمراً حتمياً وصل إلى حد الزواج والمصاهرة، حسب شهادة ذهبي الفم. وكانت مشكلة الإسكندرية هي ذات مشكلة أنطاكية مع فارقٍ هام، وهو أن في أنطاكية كان اليهود والمسيحيون يتكلمون الآرامية (السريانية) بجانب اليونانية. والدليل هو ما ورد بوفرة في عظات ذهبي الفم نفسه، وبالذات العظات الخمسة ضد المتهودين.

من هذه الخلفية التاريخية جاء هجوم الدسقولية على حركة التهود، وجاءت أيضاً الوثائق المنحولة مثل قوانين أبوليدس العربية، التي ربما كان لها أصل قبطي اندثر. ولعل ما كان يحدث في برية الإسقيط، وهو ما أشار إليه القديس أثناسيوس الرسولي في رسالته إلى آمون عن إفرازات الجسد، يؤكِّد أن القراءات الحرفية والسطيحة لأسفار

العهد القديم كانت خلف ما دار من حوار في الإسقيط. ثم يأتي بعد ذلك خاتمة الوثائق التاريخية، وهو كتاب القديس كيرلس عمود الدين: "السجود والعبادة بالروح والحق"، وهو الشرح المسيحي لشريعة موسى. ومن أسئلة بلاديوس للقديس كيرلس ومن إجابات القديس كيرلس نفسه، ندرك أن حركة التهود كانت حركةً حيَّةً. فإذا جاء من التاريخ كلاً من رسالة أثناسيوس الرسولي إلى آمون، وكتاب السجود والعبادة بالروح والحق للقديس كيرلس، فإننا يجب أن نفهم أن محور الشريعة أو الناموس لم يعد قائماً، وهو ما سبق وشغل:

- الرسالة إلى رومية.

- الرسالة إلى غلاطية.

- الرسالة إلى كولوسي.

- الرسالة إلى العبرانيين.

أي بواقع ٤ رسائل من جملة ١٤ رسالة من رسائل القديس بولس، بجانب ما ورد في باقي الرسائل، لذا فالأمر لا يحتاج إلى إعادة نظر فيما نقول.

كانت دهشتي أكبر في مناسبتين:

- الأولى، وهي أهم بكثير من الثانية، هي حجة المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية بأن الرب لم يترك لنا وصايا خاصة بشرائع التطهير[١]. وهي حجة واهية تؤكد لنا أننا إزاء مدرسة فقهية نصوصية دخلت وسيطرت على المجمع المقدس نفسه؛ لأن هذه النظرة، وتلك الحجة، لو طُبِّقَت على كل الممارسات الكنسية

(١) راجع مقلنا بعنوان: "المجمع المقدس يبحث عن وصية"، منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية بتاريخ ٢٨ ديسمبر ٢٠١٤.

مثل تقديم البخور، ووضع الأيقونات، وخدمة الليتورجيا، الصلوات، والملابس، والأصوام، ومباني الكنائس، بل وإقامة خدمة القداس في يوم الأحد؛ لزال أساس المسيحية نفسه. فأين هي وصايا الرب في كل هذا وغيره، واضح تماماً أن الأساس، وهو يسوع المسيح نفسه "حجر الزاوية"، قد غاب، ولذلك فتَّشوا عن النصوص!!!

أما دهشتي الثانية، فكانت من هذا الذي رفض رسالة أثناسيوس إلى آمون بحجة أن تناول الإفخارستيا لم يرد في نص الرسالة. وكان مثار دهشتي أنهم حولوا الرسالة إلى دراسة فقهية، بينما محور الرسالة يدور على أن الله هو خالق الجسد، وأنه لا يوجد دنس أو خطية في وظائف الأعضاء التي خلقها الله. ونتيجةً لتلك النظرة الفقهية للرسالة، غاب تقديس الجسد، وكأن الجسد وُضِع تحت أحكام الشريعة القديمة، شريعة موسى.

ولا يفوتني قبل أن أُنهي الحديث عن الخلفية التاريخية، أن أسجِّل كلمةَ شكرٍ للأستاذ الدكتور جورج عوض على ترجمة جيدة جداً لكتاب "السجود والعبادة بالروح والحق"، وعلى ما بذله من جهد في المقدمة التي افتتح بها الترجمة، وعلى الحواشي الهامة التي أضافها إلى الترجمة. وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى أن المقالة الثانية عن التبرير بالإيمان، تحتاج إلى توثيق تاريخي سكندري لموضوعٍ لم يدرسه سوى الأب متى المسكين في شرح غلاطية، وفي دراسة موجزة للدكتور موريس تاوضروس في شرح رومية؛ لهذا يبقى علينا فتح الملفات التاريخية.

-٢-

المحاور التاريخية الكبرى

في الحوار اليهودي – المسيحي في الإسكندرية

من المؤسف حقاً أن خضعت دراسة هذا الموضوع بالذات لاعتبارات سياسية ومذهبية.

كانت دراسة: R. L. Wilken, Judaism and The Early Christian Mind, 1971. وما تلاها من دراسات أخرى تطول بها قائمة المراجع، تؤكد أن حوار الشهيد يوستينوس: "الحوار مع تريفو"، وما سبقه من رسائل اغناطيوس الأنطاكي، تقدم لنا أربعة محاور أساسية، هي أولاً تاريخية، وثانياً عقائدية، مع الأخذ في الاعتبار أنه لا يوجد فصل بين التاريخي والعقيدي.

- **المحور الأول هو**: يسوع المسيح آدم الثاني.

- **المحور الثاني هو**: استعلان الله لبني البشر في يسوع المسيح بالروح القدس.

- **المحور الثالث هو**: فهم دور الشريعة أو الناموس في نور شخص وعمل الوسيط يسوع المسيح.

- **المحور الرابع هو**: الكنيسة أو الشعب الجديد، أو الجنس الثالث الذي ليس هو يهودي ولا أممي، بل الجنس الجديد المولود من الله.

وحسب ما أراه في المعارك الإعلامية الدائرة، أجد أن هذه المحاور الأربعة غابت عن الهجوم، والهجوم المضاد.

أولاً: إذا كان المسيح هو آدم الثاني، وهو ما سبق وأشرنا إليه في عدة دراسات سابقة، بل وعدة مرات، بات من الحتمي أن نسأل عن أيةِ إنسانيةٍ نتحدث: القديمة، أم الجديدة؟ القديمة نعرفها جيداً، والجديدة -التي تنال ضربات من كل جهة تحاول نسفها بديناميت الغيظ- هي التي خُلقت ليس بفكرٍ ما ولا بعملٍ ما، بل بالميلاد الجديد في سِرَّي المعمودية والميرون، وتنال الخبز السمائي يسوع المسيح نفسه في الإفخارستيا.

إذا كان لنا إيمانٌ صادقٌ بأننا فعلاً خليقة جديدة، فكيف نعود إلى شريعة الظلال، أي شريعة موسى التي وُضِعَت من أجل الخليقة القديمة (عب ١٠: ١ وغيرها)؟

ثانياً: إذا كان الله قد استُعلِن ثالوثاً هو الآب والابن والروح القدس، وأننا ننال شركة في حياة الثالوث هي هبة ونعمة الحياة الأبدية من الآب بالابن في الروح القدس، فكيف يمكن أن يدخل وسيطٌ بيننا وبين الثالوث، إذا كان الوسيط نفسه هو يسوع المسيح الكلمة المتجسد الأقنوم الثاني، هو الذي جاء بهذه الشركة فيه هو، وهو الذي نقل أصل الإنسان من آدم الأول إلى آدم الثاني؟ ولسنا في حاجة للتأكيد على أن استعلان الثالوث في تجسد الابن، وفي انسكاب المعزِّي، جعل أركان التدبير ثابتةً على أساس الهي. فعند الشهيد أغناطيوس الأنطاكي، الظهور الإلهي لذات الله أو الأبيفانيا Οἰκονομία φανερώσσας ἑαυτόν في يسوع المسيح (مغنسيا ٨: ٢) هو تدبير "الإنسان الجديد يسوع المسيح" (أفسس ٢٠: ١). وهنا نجد عبارة تشرح التدبير الذي تم في آخر الدهور، ولذلك، كانت البداية الأزلية هي التي ظهرت في نهاية الدهور، فصارت البداية هي النهاية؛ لأن البداية ليست زمانية، بل هي الابن، وهو النهاية، أو الغاية τέλος حيث تم تجديد القديم. من هنا جاء التعليم بأن المسيحية ليست هي التي آمنت باليهودية، بل اليهودية هي التي آمنت بالمسيحية، ولذلك جاءت كلمات

أغناطيوس الأنطاكي عن حركة التهود بأنهم ذئاب شريرة أو خاطفة (فيلادلفيا ٢: ٢)، وزوان شرير (٣: ١) وشواهد قبور (٦: ١). وجاء كل هذا بالطبع استمراراً لما حدث في مجمع الرسل (أع ص ١٥)، وهو المجمع الذي فتح باب التأويل الرمزي لأسفار العهد القديم، ولم يكن تأويل الأسفار رمزياً استمراراً لمنهج التأويل الرمزي عند فيلون الاسكندري، بل هو بقاء الأسفار القديمة كظلال للنور الحقيقي الذي أشرق، وصار النور هو سبب وجود الظل.

ثالثاً: من هو الوسيط؟ هل هو الرب يسوع، أي الله نفسه، أم شريعة موسى؟ كيف أجاب الرسول بولس على هذا السؤال؟

يسأل الرسول بولس: لماذا الشريعة أو الناموس؟ (غلا ٣: ١٩) والإجابة: "قد زِيد بسبب التعديات". فلم يعد هو "مِن كل شجر الجنة تأكل ما عدا شجرة معرفة الخير والشر"، بل كما هو ظاهر في سفري اللاويين والتثنية، امتد إلى كل مناحي الحياة؛ ولذلك "زِيد" (غلا ٣: ١٩) إلى أن يأتي النسل الذي وُعِد له (بالبركة) (غلا ٣: ١٩) مرتَّباً بملائكة، أي برسل في يد وسيط (المسيح) (غلا ٣: ١٩). ويضع الرسول عبارات ذات دلالة: "أما الوسيط فلا يكون لواحد"؛ لأن الوساطة هي بين اثنين: الله والناس. ثم يسأل في عبارة اعتراضية: "ولكن الله واحد" (غلا ٣: ٢٠)؛ لأن العهد الجديد لم يكن عهداً قُدِّم على جبل حوريب، وكان الوسيط هو موسى، بل عهداً اختياراً لمحبة وصلاح الله قدَّمه الله نفسه في ابنه الوحيد، ولم نكن نحن طرفاً فيه، بل قَبِلناه بعد أن أكمل الرب التدبير.

لكن تلك الأصوات الشاردة المزعجة، تريد أن تعود بنا إلى شريعة موسى، وبينما يريدون أن يحذفوا كل ما قيل عن سائر قواعد التطهيرات الجسدانية، يريدون أن يحفظوا تلك الخاصة بالنساء فقط. وبينما كان لمس جثة ميت نجاسةً، صارت عظام الشهداء تملأ الكنائس، وصارت أماكن صلاة وتطهير للقلب. لقد ختم رسول الرب ما ذكره بعبارة ذات دلالة: "لأنه لو أعطى شريعة قادرة على أن تُحيي الكل لكان

بالحقيقة البر بالشريعة" (غلا ٣: ٢١)، ألا تفهمون؟

رابعاً: الكنيسة هي جسد الرب نفسه، وليست جسداً آخر، فليس للرب إلاَّ جسدٌ واحدٌ. ولما سقط كل من: ١- الانتساب العرقي. ٢- بركة الولادة البيولوجية، تحوَّل الأصل الإنساني من آدم إلى المسيح؛ لذا جاء الرسول بولس بما هو صادم فعلاً لليهود، فهو يصف اليهود الذين ولدوا من نسل ابراهيم ولادة جسدانية (بيولوجية) بأنهم هم أولاد هاجر، بينما كل مَن يؤمن بالمسيح، فهو الابن الحقيقي لإبراهيم لأنه ولد "حسب الموعد"، أي حسب الروح القدس.

هكذا خضع الترتيب التاريخي والتناسل البيولوجي لما استُعلِن في المسيح. لذا أرجو من القارئ أن يدرس دون استعجال (غلا ٤: ٢١-٣١).

- كان لإبراهيم ابنان: واحدٌ من الجارية (هاجر)، والآخر من الحرة (سارة).

- الذي وُلِد من الجارية وُلِد حسب الجسد (ولادة بيولوجية).

- وأما الذي من الحرة، فقد وُلِدَ حسب وعد الله.

المحصلة:

الولادتان رمزٌ لعهدين:

- العهد الذي من جبل سيناء الوالد للعبودية، وهو هاجر (غلا ٤: ٢٤)، وبنص قاطع: "لأن هاجر جبل سيناء (حيث نزلت الشريعة على موسى) في (صحراء) العربية، فإنها مستعبدة مع بنيها، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة.

- العهد الجديد: "أما أورشليم العليا (السماء) التي هي أُمنا جميعاً، فهي حرة"، ثم يقتبس نبوة عن المرأة العاقر التي سيكون لها أولاد أكثر من التي لها زوج (أش ٥٤: ١).

التطبيق:

"إذا أيها الأخوة لسنا أولاد جارية (هاجر)"، لسنا مثل اليهود بل أولاد الحرة (الولادة الجديدة).

كيف حدث هذا التحول؟

أولاً: بولادة الرب من أُم النور بالروح القدس راجع (غلا ٤: ٤-٦)، إذ أسس الربُّ الحياةَ الجديدة، فكيف يمكن أن نعود إلى العبودية، وأن نصبح مثل أولاد الجارية، أي أولئك الذين نالوا ولادةً جسدانيةً؟ ولذلك يصرخ رسول المسيح: "اثبتوا في الحرية التي قد حررنا المسيح" (٥: ١). ثم يقول عن علامة العهد بين الله وابراهيم، أي الختان: "أقول لكم إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً" (٥: ٢). ماذا إذن تعني العودة إلى الناموس أو شريعة موسى؟ "السقوط من النعمة" (غلا ٥: ٤)، ويؤكد بولس قبل ذلك أننا تحت الشريعة كنا مثل الابن القاصر "لكن بعد ما جاء الإيمان لسنا تحت مؤدب" (غلا ٣: ٢٥).

يتبع،،،

د. جورج حبيب بباوي